مطرانية الروم الأرثوذكس في بيروت

Orthodox Archdiocese of Beirut

العدد ٢٠٠٦/١٣
الأحد ٢٦ آذار
الأحد الثالث من الصوم
أحد الصليب الكريم
تذكار احتفالي لجبرائيل رئيس الملائكة
اللحن السابع
إنجيل السَحَر السابع

الرسالة

(عبرانيين ٤: ١٤-١٦؛ ١:٥-٦)

يا إخوة، اذ لنا رئيسُ كهنةٍ عظيمٌ قد اجتازَ السموات، يسوعُ ابنُ الله، فَلْنَتَمَسَّكْ بالإعتراف* لأن ليسَ لنا رئيسُ كهنةٍ غيرَ قادرٍ ان يرثيَ لأوهانِنا بل مُجرَّبٌ في كلّ شيءٍ مثلَنا ما خلا الخطيئةَ* فلنُقبِلْ اذًا بثقةٍ إلى عرش النعمة لننالَ رحمةً ونَجِدَ ثقةً للإغاثةِ في أوانها* فإنَّ كُلَّ رئيس كهنةٍ مُتَّخَذٍ من الناس يُقامُ لأجل الناس فيما هو للّه ليُقرِّبَ تقادمَ وذبائحَ عن الخطايا في إمكانه ان يُشفِقَ على الذين يجهلونَ ويَضِلُّون لكونه هو أيضًا متلبِّسًا بالضُّعف* ولهذا يجبُ عليه أن يقرِّبَ عن الخطايا لأجل نفسِه كما يقرِّبُ لأجل الشعب* وليسَ أحدٌ يأخُذُ لنفسِه الكرامةَ بل مَن دعاهُ اللّهُ كما دَعا هرون* كذلكَ المسيحُ لم يُمجِّدْ نفسَهُ ليصيرَ رئيسَ كهنةٍ بَل

لقد انتصف الصيام

«إذا ما شاهدنا اليوم صليب المسيح الكريم مرفوعاً فلنسجد له بإيمان فرحين ونصافحه بشوق مبتهلين إلى الرب الذي صُلب عليه بمشيئته، أن يؤهِّل جميعنا للسجود لصليب الكريم وأن ندرك نهار القيامة خلواً من مداينة» (من سَحَر الأحد الثالث من الصوم).

في الأحد الثالث من الصوم الكبير المقدَّس نصل إلى منتصف المرحلة التي تقودنا إلى الفصح المقدَّس، إلى الصليب والقيامة. قد يكون التعب تسلل إلى نفوس المؤمنين المحبين لله، لذا رتبت الكنيسة أن تنصب صليب المسيح أمامنا في هذا اليوم لنسجد له ولنتشدَّد في مسيرتنا الجهادية الصيامية، واضعة نصب أعيننا هدف رحلتنا: الصليب. نقرأ في صلاة السحر: «...كما ان الذين يسعون في طريق شاسعة وعرة عندما يعييهم السير يجلسون قليلاً حيث يجدون شجرة حسنة الظل ويستريحون، وبعدما يتقوّون جيداً يجوزون بقيّة الطريق، هكذا والآن في زمان الصيام الذي هو كطريق شاسعة متعبة، قد زرع الصليب الحامل الحياة في الوسط مانحاً إيانا راحة، ومنشِّطاً الذين كلُّوا وأعيوا إلى تكميل بقيَّة سعيِّهم المتعب...» (سنكسار أحد الصليب - التريوديون).

في هذا اليوم يضع الكاهن الصليب المقدَّس على صينية مزيَّنة بالأزهار وبثلاث شمعات، ويطوف بها في الكنيسة ثم يضعها على طاولة أمام الباب الملوكي. يبخر الكاهن الصليب ويسجد له، وكذلك يفعل الشعب، فيما ترنم الجوقة: «لصليبك يا سيدنا نسجد ولقيامتك المقدسة نمجِّد». في الكنيسة الروسية، يوضع الصليب الكبير في وسط الكنيسة، في هذا اليوم، ويبقى طيلة الأسبوع الذي يلي، وذلك تشديداً على أهميَّة الصليب في حياة أبناء الكنيسة. أهميَّة هذا الطقس أنه يجعلنا نتطلّع إلى الفصح من خلال الصليب، لأنه بالصليب أتى الفرح إلى كل العالم.

قد يرى البعض في الصليب مجرَّد آلة أو وسيلة للتعذيب والهلاك والموت، آلة عار وعقاب لمرتكبي الجرائم في القديم. لكن بالنسبة لنا نحن المؤمنين فإن الصليب، وبحسب الرسول بولس، هو أداة انتصار، هو وسيلة الخلاص ومصدرٌ للفرح: «فإن كلمة الصليب عند الهالكين جهالة وأما عندنا نحن

الذي قالَ لهُ أنتَ ابني وأنا اليومَ ولدتُكَ. كما يقولُ في موضعٍ آخرَ أنتَ كاهنٌ إلى الأبدِ على رتبَةِ ملكيصادَق.

الإنجيل

(مرقس ٨: ٣٤–٣٨؛ ٩: ١)

قالَ الربُّ مَن أرادَ أن يتبعَني فليكفُرْ بنفسِهِ ويحملْ صليبَهُ ويتبعني لأنَّ مَن أرادَ أن يخلِّصَ نفسَهُ يُهلكُها ومَن أهلكَ نفسَهُ من أجلي ومن أجلِ الإنجيلِ يخلِّصُها* فإنَّهُ ماذا ينتفعُ الانسانُ لو ربحَ العالمَ كُلَّهُ وخسِرَ نفسَهُ* أم ماذا يُعطي الانسانُ فِداءً عن نفسهِ* لانَّ مَن يستحي بي وبكلامي في هذا الجيلِ الفاسقِ الخاطئِ يستحي بهِ ابنُ البشرِ متى أتى في مجدِ أبيهِ مع الملائكةِ القديسين* وقالَ لهم الحقَّ أقولُ لكم إنَّ قومًا من القائمين ههنا لا يذوقون الموتَ حتَّى يَرَوْا ملكوتَ اللّهِ قد أتى بقوَّةٍ.

تأمل

«فإن مَنْ أراد أن يخلِّص نفسه يُهلكها، ومَن أهلك نفسهُ من أجلي ومن أجل الإنجيل يُخلِّصها».

لا أعطيكم هذه الوصايا بداعي عدم اهتمامي بل بسبب اهتمامي الكبير المخلَّصين فهي قوَّة الله» (١كور ١: ١٨).

بالصليب حصل الخلاص لكل العالم. نقرأ في الإنجيل بحسب الرسول متى (الإصحاح ٢٧:٤٥–٥٣) انه عندما كان الرب يسوع معلّقاً على الصليب صرخ «إلهي إلهي لماذا تركتني»، فوضع أحدهم خلاًّ على اسفنجة ليسقيه. ثم صرخ «يسوع أيضاً بصوت عظيم **وأسلم الروح**. وإذا بحجاب الهيكل قد انشق إلى إثنين من فوق إلى أسفل والأرض تزلزلت والصخور تشققت، والقبور تفتحت **وقام** كثير من أجساد القديسين الراقدين وخرجوا من القبور بعد قيامته ودخلوا المدينة المقدسة وظهروا لكثيرين». هذا كلام مهم جداً ودقيق. في نفس اللحظة التي أسلم فيها يسوع الروح «انشق حجاب الهيكل» و«قام كثير من أجساد القديسين الراقدين». لحظة موت الرب على الصليب هي بداية القيامة فعلياً، والدليل على ذلك قيامة الراقدين بالجسد. كمال قيامة هؤلاء، أي كمال فعل الصليب الخلاصي، كان يوم قيامة الرب عندما خرج هؤلاء المائتون من القبور وظهروا لكثيرين في المدينة المقدسة. لحظة موت يسوع على الصليب كانت انطلاقة شرارة حياتنا نحن وخلاصنا، لأنه في هذه اللحظة «ابتُلع الموت إلى غلبة» (١ كور ١٥: ٥٤)، والدليل على ذلك قيامة الكثيرين بالجسد.

بناء على ما ورد يصبح السجود للصليب في منتصف الصيام أمراً طبيعياً، لا بل حاجة أساسية لكل من تعب لئلا يتسلَّل الكسل إليه. فهل من منبِّه لنا أفضل من صليب الرب؟ المهم أيضاً أن لا يبقى الصليب مجرَّد فكرة يتلذذ بها العقل. لا معنى للفكرة إن لم تصبح جزءاً من كياننا. لذا إنجيل اليوم يقول «مَن أراد أن يتبعني فليكفُر بنفسه ويحمِل صليبَهُ ويتبعني لأنَّ مَنْ أراد أن يُخلِّص نفسَهُ يُهلِكها ومَن أهلك نفسهُ من أجلي ومن أجل الإنجيل يخلِّصها» (مر ٨:٣٤–٣٥). يجب أن يصير الصليب جزءاً من حياتنا اليومية لكي نحصل على الخلاص. علينا أن نحمل الصليب كما حمله الرب يسوع وقد يصل بنا إلى الموت. لكن من هناك القيامة. الرب يسوع «أطاعَ حتى الموتِ موتِ الصليبِ، لذلكَ رفعهُ اللهُ أيضاً وأعطاهُ اسماً فوقَ كُلِّ اسم، لكي تجثو باسمِ يسوعَ كُلُّ رُكبةٍ» (في٢:٨–١٠). لقد ظن الجميع عندما رأوا يسوع على الصليب معلّقاً ان كل شيء انتهى، لكن الأمور انقلبت رأساً على عقب ونبعت القيامة من القبر. هكذا يجب ألا نيأس في حياتنا عندما نقرّر حمل الصليب، المهم نهاية القصة وليس بدايتها.

في هذا الأحد لنتأمل الصليب، هذا السر العظيم، سر خلاصنا، ولنأخذ القرار بحمل الصليب واتباع يسوع. مَن يفكر في الخلاص الذي سيحصل عليه في اليوم الأخير يهون عليه حمل الصليب: «لأن نيري هيّن وحملي خفيف» (متى ١١:٣٠).

أحد الصليب

«لأن ليس لنا رئيس كهنة غير قادر أن يرثي لأوهاننا، بل مجرّب في كل شيء مثلنا ما خلا الخطيئة». ما معنى أن يشدِّد نص الرسالة إلى العبرانيين الذي تُلي على مسامعنا اليوم على تشابه يسوع المسيح مع البشر في كلّ تجاربهم ما عدا الخطيئة؟ الجواب يكمن في الجزء الأول من الآية المشار إليها أعلاه. يسوع المسيح بوصفه رئيس كهنة

بكم، كما أن الذي يتهامل في عقاب ابنه يوصله إلى الهلاك بينما الذي يقاصصه يخلّصه. الشيء نفسه يحصل في الجيش لأنه إن كان الضابط، كونه يشفق على جنوده يأمر ببقائهم المستمر في الثكنة، يخسر معهم رفاقهم الذين في الداخل أيضاً. لذلك من أجل ألاّ يحصل الشيء نفسه عندكم، يجب أن تواجهوا الموت باستمرار. إن كانت الحرب الرهيبة على وشك النشوب، لا تبقَ أنت في الداخل بل أخرج وحارب. إن دخلت الجهاد حينئذٍ تعيش.ففي الحروب المدنيّة المستعد للذبح يبرز أقوى من الآخرين، لا يُغلب، بل يخافه الأعداء، مع العلم بأنه يحارب من أجل ملك لا يستطيع أن يقيمه بعد الموت. أما في تلك الحروب حيث الرجاء الكبير بالقيامة فالذي يقدّم نفسه للموت يخلّصها لأنه أولاً لن يؤسر وثانياً، وإن سقط يكون انتهى إلى حياةٍ أسمى.

«لأنه ماذا ينتفع الإنسان لو ربح العالم كله وخسر نفسه، أم ماذا يعطي الإنسان فداءً عن نفسه» (متى ١٦: ٢٦).

إن خلاص النفس الكاذب هو هلاك. في الواقع هو أسوأ من كل

قدّم ذاته مرّةً واحدةً على الصليب ووحّد ذاته مع البشر جميعهم لا عبر مجرّد كونه إنساناً كاملاً، بل أيضاً عبر مشاركتهم كلّ ما يختبرونه من ضعف بشريّ، وذلك حتى يقدر أن يرثي لأوهانهم. يسوع، إذاً، يتشارك مع إخوته البشر في الضعف، على كونه ابن الله. ومصدر هذا أنّه مجرّب مثلهم.

أين مكمن خبرة «التجربة» التي تعرّض لها الرب يسوع خلال حياته الأرضيّة؟ من الطبيعي أن يستعين من يقرأ هذا النص بما ورد لدى الإنجيليين مرقس ومتى ولوقا عن تجربة يسوع. ولكن قبل الإنصراف إلى التدقيق في ما تقوله هذه النصوص، لا بدّ من الإشارة، بادئ ذي بدء، إلى أنّ المعنى الأوّلي لكون يسوع «مجرّباً» مثل البشر هو ارتضاء ابن الله أن يكون واقعاً تحت أحكام الزمان والمكان رغم أنّه، في طبيعته الإلهيّة، مجرّد عنهما كليّاً. يضاف إلى ذلك قبوله أن يُخضع طبيعته البشريّة إلى كل ما يتحكّم بالواقع الإنسانيّ من قوانين الجوع والعطش والتعب والنوم والألم والحزن والشوق. فنجده، مثلاً، يشتهي أن يأكل الفصح مع تلاميذه (لو ٢٢: ١٥)، ويعطش على الصليب (يو ١٩:٢٨)، ويضطرب ويبكي على صديقه لعازر بعد موته (يو ١١:٣٥)، ويحزن حتى الموت قبل انطلاقه إلى صلبه الطوعيّ (متى ٢٦:٣٨)، وينام في السفينة (مر ٤:٣٨).

يُطلق بعض آباء الكنيسة على هذه الظواهر تسميّة «الأهواء غير المعابة» مميّزين إيّاها بوضوح عن «الأهواء المعابة» التي لم يقع فيها يسوع. وهي كلّ ما يؤول إلى الخطيئة بوصفها فعلاً صادراً من الإرادة البشريّة الحرّة. حتى أنّه ثمّة نص لدى القديس مكسيموس المعترف (نحو ٥٨٠–٦٦٢) يعتبر فيه أنّ السيد له المجد وصل إلى حدّ اتّخاذه في طبيعته البشريّة مظهر الثورة على الله الذي غالباً ما يؤدّي لدى البشر العاديين إلى الخطيئة. ولعلّ القديس المعترف يقصد بذلك، من بين ما يقصده، تردّد يسوع الناصريّ أمام الموت الذي ظهر في نزاعه على جبل الزيتون (لو ٢٢:٣٩–٤٦) وصرخة «إلهي إلهي لماذا تركتني» (مر ١٥:٣٤) التي تعبّر عن شعوره العميق بالمتروكيّة، لحظة الصليب والموت. هذا الشعور بالمتروكيّة لا يُستدلّ منه على أنّ يسوع فقد ثقته بالله على الصليب، فهو أيضاً من يقول: «يا أبتاهُ، في يديكَ أستودِعُ روحي» (لو٢٣:٤٦)، وذلك رغم أنّ الإحساسين على شيء كثير من التضادّ. ولكن انوجاد الإنسان في حال من تضادّ المشاعر ليس غريباً عن الخبرة البشريّة اليوميّة: «إذ لستُ أفعَلُ ما أُريدهُ بل ما أبغضه فإيَّاه أفعل» (رو ٧:١٥). يضاف إلى ذلك أنّ يسوع بفعل كونه في طبيعتين، بشريّة وإلهيّة، من الطبيعيّ أن يعبّر تعبيراً كاملاً عن خصائص كلّ من الطبيعتين. والثابت أنّ التردّد أمام الموت والإحساس بالمتروكيّة هما من جملة خصائص ما يتعرّض له المرء من «تجارب» غير معابة تتأصّل في طبيعة كونه إنساناً.

ولكن ماذا عن «تجارب» يسوع في البريّة التي تشير إليها الأناجيل؟ لا شكّ في أنّ هذه التجارب تندرج ضمن خانة أخرى تختلف كلّ الاختلاف عن التجارب «غير المعابة» التي ذكرناها أعلاه. فبخلاف الجوع والعطش والألم والموت، «يختبر»

هلاك ولا شفاءَ له لأنه لا يوجد شيء يستطيع أن يفتديه. يقول: لا تدعني أعتقد ان الذي يهرب من مثل هذه المشقات يخلص نفسه بهذه الطريقة حتى وإن ربح العالم كلّه، لأنه ماذا يستفيد من كل ذلك إن خسر نفسه؟ قل لي، إن كنت ترى عبيدك ينعمون برفاهية العيش وأنت عائش في أسوأ الشرور، تُرى ماذا تستفيد من وضعك كسيّد؟ طبعاً لا تستفيد شيئاً. فكّر أيضاً كذلك بالنسبة إلى نفسك أيضاً. ماذا تستفيد إن كان الجسد عائشاً في الغنى والرفاهية والنفس تنتظر الهلاك الأبدي؟

«ماذا يعطي الإنسان فداءً عن نفسه»؟. هنا يبقى في الموضوع نفسه. هل يقصد أن على الإنسان أن يعطي نفساً أخرى بدلاً عن نفسه؟ لا، لأنك إن خسرت أموالاً يمكنك أن تعوّض عنها بالأموال، بالبيت، بالعبيد أو بأي شيء آخر من ممتلكاتك. أمّا إن خسرت نفسك فلن تستطيع أن تعوّض عنها بنفس أخرى. لو ملكتَ العالم كلّه، لو كنت ملكاً على المسكونة لن تستطيع أن تفتدي نفسك بنفس أخرى حتى وإن وُهبت كل ممتلكات الأرض والمسكونة كلّها.

القديس يوحنا الذهبي الفم

يسوع، بحسب رواية الأناجيل، هذه التجارب بمعنى أنه يتعرّض إلى ما يزيّنه له الشيطان من جمال السقوط فيها، لكنّه يرفض هذا السقوط رفضاً تاماً، أي إنّه لا ينتقل من مستوى التجربة الخارجيّة المتمثّلة بغواية الشيطان إلى مستوى الاعتناق الداخليّ لهذه الغواية عبر الفعل الإراديّ. تجارب يسوع التي يشير إليها الإنجيليّ مرقس بشكل عموميّ (مر ١٢:١)، فيما يمعن الإنجيليان متى (١:٤–١١) ولوقا (٤: ١–١٣) في وصفها، ترتبط، إذاً، بالأهواء «المعابة»، أي بالخطايا النابعة من فعل إراديّ، ما يفسّر أنّ يسوع كان قاطعاً في رفضها لكي يكون «مجرّباً في كلّ شيء مثلنا ما عدا الخطيئة».

نصّ الأناجيل قد يوحي طبعاً بأنّ يسوع تعرّض لمثل هذه التجارب مرّة واحدة في حياته، أي بعد معموديّته على يد يوحنا في الأردن. بيد أنّ الأناجيل لا ترتّب أحداثها على نحو بيوغرافيّ، بل هي شهادات إيمانيّة تتصرّف في تسلسل الأحداث بحسب المقاصد التي يرمي إليها كل إنجيليّ. هكذا نجد مثلاً أنّ يسوع يصعد في الأناجيل الإزائيّة، متى ومرقس ولوقا، مرّة واحدة إلى أورشليم، فيما يصعد غير مرّة إلى المدينة المقدّسة في إنجيل يوحنا. هذا يعني أنّ رواية الأناجيل عن تجارب يسوع يمكن اعتبارها رواية «نموذجيّة»، بمعنى أنّها تشير إلى حال يسوع طوال حياته الأرضيّة. فالشيطان كان يجرّب يسوع طوال مكوثه على الأرض بتجربة الميل إلى استمداد وجوده لا من كلام الله، بل من خيرات الأرض حصراً: «ليسَ بالخبز وحدهُ يحيا الإنسانُ بل بكلِّ كلمةٍ من الله» (لو ٤:٤). والشيطان ما كان يتردّد في أن يكيل على يسوع تجارب السلطة الواحدة تلو الأخرى، حتى أنّنا نقرأ أنّ الجموع أرادوا، ذات يوم، أن يختطفوا يسوع ليقيموه ملكاً فانسحب من بينهم وانصرف إلى الجبل (يو ١٥:٦). والأكيد أنّ الشيطان، كما في تجربة البريّة، حاول أن يضغط على يسوع مراراً حتى يجرّب أباه السماوي، ولا سيّما في اللحظات الأخيرة من حياته: «أتظنُّ أني لا أستطيعُ الآن أن أطلُبَ إلى أبي فيقدِّمُ لي أكثرَ من إثني عشَرَ جيشاً من الملائكةِ» (متى ٥٣:٢٦).

تجارب يسوع على الأرض لم تنحصر، إذاً، في ما يرويه لنا الإنجيليون في نص التجربة «الرسمي»، إذا جاز التعبير. ولعلّ الإنجيليّ لوقا يشير إلى شيء من هذا حين يكتب أنّ الشيطان فارق يسوع بعد التجارب الثلاث في البريّة «إلى حين» (لو ١٣:٤) ليعود ويظهر على مسرح الأحداث قبل الصلب عبر دخوله في قلب يهوذا الإسخريوطي (لو ١:٢٢).

حياة يسوع الأرضيّة، من ولادته حتى صلبه، كانت، كحياة كلّ بشريّ، مغلّفة بالتجارب، أي أنّ الشيطان كان يسعى في كل لحظة إلى حمل يسوع على السقوط في الخطيئة عبر ما كان يقوم به من تزيين لجمالاتها ومنافعها. إلاّ أنّ يسوع «المجرّب مثلنا في كلّ شيء» لم يستسلم لتجربة الخطيئة فظلّ، بخلاف البشر جميعهم، حملاً منزّهاً عن العيب وبريئاً من الخطيئة ليفتدي من خضعوا لحكم الخطيئة، ويعتق من الموت من كانوا طوال حياتهم تحت نير العبوديّة (عبر ٢: ١٥).

بالامكان الإطلاع على النشرة أسبوعيًا على صفحة الإنترنت:

www.quartos.org.lb